

الفصل ٩

العلاقات العائليّة: الأخوة والأخوات الأشقاء، والأطفال الوحيدون

يمكن أن تتسم العلاقات بين أفراد العائلات التي تتضمن أطفالاً موهوبين بالشدة والحدة، وقد تسبّب القلق أحياناً. وهناك بعض المسائل المشتركة تتعلق بالأطفال الموهوبين عندما يكون لهم إخوة وأخوات أشقاء، أو عندما يكونون أطفالاً وحيدين. وتؤثر التفاعلات داخل العائلة في الطريقة التي يتعامل بها الفرد، أو يتواصل، مع الآخرين عندما يكون بالغاً. كما تؤثر أساليب التربية التي يحملها الشخص من عائلته الأصليّة في طريقة التنشئة في عائلته الجديدة، حيث تتنوع هذه الأساليب بناءً على ما إذا كان هذا الشخص البالغ في صغره هو الطفل الوحيد للعائلة أو لا. كذلك قد تعكس أساليب التنشئة المتبعة الطريقة التي يتعامل بها الطفل في علاقاته مع العائلة، ويمكن أن تبرز في أثناء مناقشة هذه العلاقات مسائل خاصّة بالأطفال الموهوبين، سواءً كان الواحد منهم الطفل الوحيد للعائلة أو له إخوة وأخوات أشقاء.

الأطفال الوحيدون

يتشابه الطفل الوحيد مع أوّل طفل للعائلة في بعض الأمور، وقد يعزى ذلك إلى أنّ أوّل طفل للعائلة يبقى هو الطفل الوحيد إلى حين ولادة طفل آخر، وقد يستمرّ ذلك سنوات عديدة. ويميل الأطفال الوحيدون إلى الاستقلاليّة التامة، فهم يتخذون من الكبار نموذجاً لهم، ويأخذون زمام المبادرة لإبقاء أنفسهم مشغولين دائماً، كما أنهم لا يحتاجون إلى التكيف مع أطفال آخرين كونهم لا يواجهون ضغوطات من إخوة أشقاء، وقد يكونون متمردين على الآراء والعادات السائدة. وعلى الرغم من أنهم قد يكونون قادة جيّدين، إلا أنهم قد يمارسون هواياتهم واهتماماتهم بمعزل عن الآخرين وينشغلون بأنشطة فردية وغير جماعية.

وتسهّل أساليب رعاية الأطفال الوحيدين عند وجود اثنين من الراشدين في العائلة، حيث يتلقّى الطفل عناية كبيرة، وتتوافر للآباء فرص اصطحاب أطفالهم إلى الحفلات والمكتبات، أو إلى مناسبات اجتماعية تخصّ الكبار، يشاهدون فيها مناقشات وأنشطة عالية المستوى. كما يكون باستطاعة الوالدين أن يوفّروا للأطفال فرصاً تعليمية جديدة، ولاشك أن هذا التعرّض لهذه الخبرات هو ما يفسّر نتائج العديد من الدراسات التي أظهرت أنّ الكثير من الأشخاص البارزين كانوا إمّا الطفل الأوّل، أو الطفل الوحيد في العائلة. ويُفسّر كذلك لماذا يميل هؤلاء الأطفال ليكونوا مرتفعي التحصيل، أو منخفضي التحصيل، إذا انغمس الآباء في حياة أطفالهم، أو دخلوا معهم في صراع على السلطة.

وترافق أساليب رعاية الطفل الوحيد بعض المخاطر التي سوف نناقشها في فصل تعقيدات الأبوة الناجحة. وباختصار، قد يكون من المغري أن ينغمس الشخص في التعامل مع الطفل الذكيّ جدّاً بصفته

نظيراً له، وأن يستشيريه عملياً في القرارات كلها، ومنها على سبيل المثال، أين سنأكل؟ وماذا سنعمل لنرّوح عن أنفسنا؟... الخ، وتكون نتيجة ذلك أن الطفل يمتلك قوة كبيرة في العائلة، ويصعب عليه تقبّل اهتمام والديه بأي مولود جديد قد ينضم إلى العائلة مستقبلاً.

تنافس الأخوة الأشقاء وتعاونهم

تؤثّر قوّة الطفل الموهوب تلقائياً في علاقته مع أخوته الأشقاء، حيث غالباً ما يقارن الأطفال الموهوبون أنفسهم مع الأطفال الآخرين في البيت، وقد يقيسون قيمتهم بمدى نفوذهم، والاهتمام والوقت الذي يحصلون عليه من آبائهم. ويولّد تنافس الأشقاء، وكذلك ترابطهم، مشاعر قوية، وقد يصاب كثير من الآباء بالإحباط نتيجة هذه العلاقات الأخويّة المتذبذبة والمتقلبة، في حين يقول آباء آخرون أن علاقة الأشقاء تكون ممتعة عموماً. ونحن نعرف أن جميع العائلات تمر بفترات يشوبها الصراع والتوتر، لكن من المؤكد أن علاقات الأشقاء تسهم في كآبة العائلة. ولحسن الحظّ، توجد استراتيجيات يمكن أن يستعملها الآباء للتقليل من التوتر بين الأخوة.

وقد نتساءل هنا: ما أهمية مساعدة الأطفال على التقليل أو التخلص من المشاحنة، والمنافسة، والشجار؟ إن أحد الأسباب المباشرة لذلك هو زيادة السعادة والمرح داخل العائلة. كما أن القوانين العائلية التي يتعلمها الصغار عادة ما تنتقل معهم في سنّ الرشد، وتؤثّر في الطريقة التي يتعامل بها كلّ منهم في المستقبل مع شريك الحياة أو شريك العمل. وقد يكون حمل هذه القوانين والعادات من الطفولة إلى الرشد إيجابياً في بعض الأحيان، مثلما يحدث عندما يكون الصغير جيّد التحصيل، ويستمرّ على هذه الحال عندما يكبر، فقد يصبح مدير أعمال محترم لمؤسسة ناجحة. وفي أحيان أخرى، فإنّ أدوارنا في الطفولة تعيقنا عندما نكبر، فقد يعدّ شخص نفسه على صواب دائماً، أو في المقدّمة - مثلما كان وهو صغير - إلى الحدّ الذي يتحاشى فيه الآخرون العمل معه. أو مثل الشخص الذي لم يتمكّن وهو صغير من مجاراة أخيه الأكبر منه سنّاً، ولا زال يبذل جهوداً إضافية للتعويض عن ذلك، حتّى لو لم يكن أخوه منافساً له.

يقول «آديل فابر، وإيليان مازليش» (Adele Faber & Elaine Mazlish)، في كتابهما "أخوة بلا منافسة" Siblings Without Rivalry: "قد يكون لعلاقتنا مع إخوتنا الأشقاء تأثير قويّ في بدايات حياتنا، مما يولّد مشاعر قويّة، إيجابية أو سلبية، ومن المحتمل أن تستمرّ هذه المشاعر نفسها في علاقتنا مع إخواننا وأخواتنا عندما نكبر، وقد تمرّر إلى الجيل اللاحق".^٢ وبناءً على ذلك، قد يساعد تطوير علاقات إيجابية بين الأخوة والأخوات في وقت مبكّر على إحداث تأثيرات مفيدة لا تنتهي طيلة الحياة.

ويؤثّر الإدراك الأفضل للسلوكات والأدوار المشتركة للأخوة الأشقاء في توجيههم إلى طرق أقلّ جدليّة في التعامل مع الآخرين، وإلى تعاون أفضل وأكثر. إن بإمكاننا تقديم نماذج للأطفال؛ كي يتعاملوا مع الاختلافات فيما بينهم، حيث لا يكون الأكبر «دكتاتوراً» دائماً، ولا يكون الأصغر «ضعيفاً»، أو «مستكيناً»، أو «باكياً» دائماً، كما يمكننا استعمال استراتيجيات أخرى لتعزيز العلاقات الإيجابية.

ويساعدنا على ذلك أن نفهم بعض الأدوار العائليّة الرئيسيّة، وكيف تتغيّر هذه الأدوار عند إضافة أيّ عضو جديد إلى العائلة.

ترتيب الولادة

يصف عالم النفس «كيفن ليمان» Kevin Leman، في كتابه «ترتيب المواليد» *The Birth Order Book* بعض الأدوار التي يأخذها الأطفال في العائلة اعتماداً على كونهم الأكبر، أو الأصغر، أو الأوسط^٢. مثلاً، عادة ما يكون الطفل الأكبر-المولود الأوّل- هو الأكثر تحصيلاً في العائلة، وقد يُنظر إليه من قبل الآخرين على أنه ميّال إلى السيطرة. على النقيض من ذلك، يكون الطفل الأصغر هو «المهرج المرح»، أو «الاجتماعي»، أو الطفل «المدلل» الماهر في جذب انتباه الآخرين، في حين يشعر الطفل الأوسط أنه «محشور أو مضغوط» أو أنه مهممل لكنّه يظهر لاحقاً أنّه الأفضل تكيّفًا، والأقدر على التعامل مع الآخرين. وعلى الرغم من أنّ هذه الأدوار العائليّة ليست صارمة وثابتة، إلّا أنّها تبدو حقيقيّة في كثير من العائلات.

لكن الاحتمال الأكثر هو أن المولود الأوّل (والطفل الوحيد) هو الذي يكون موهوباً أكاديمياً، حيث يقضي الوالدان وقتاً أطول معه، ويتحدثان إليه، ويأخذانه معهم خارج البيت، وعادة ما يكونان توقّعات عالية بالنسبة له. في حين يقضيان وقتاً أقلّ مع المولود الثاني، وغالباً ما يتوقّعان من الطفل الأكبر القيام ببعض المسؤوليّات تجاهه، منها مثلاً: «هل تستطيع اللعب مع الطفل الصغير قليلاً حتى أحضر العشاء؟» ثمّ فيما بعد: «هلاً انتبهت إلى أخيك عندما يذهب إلى المدرسة؟» ومن غير المستغرب ما توصلت إليه الدراسات أنّ غالبية المواليد الأوائل هم من النوع الجادّ، وحي الضمير، والجدير بالثقة، والأكثر توقّفاً إلى استحسان الكبار. وهم يحبّون النظام، ويهتمّون بالتحصيل الأكاديمي أكثر من إخوتهم الآخرين الأصغر منهم.

وهناك احتمال ضئيل في أن يكون الطفل الثاني موهوباً، على الرغم من أنّ البيانات المتوافرة تشير إلى أنّ مقدرتهم العقليّة مساوية تماماً لمقدرة أخوتهم^٣. وعندما يوجد في العائلة طفل موهوب، فمن المحتمل وجود أطفال موهوبين آخرين بسبب العوامل الوراثيّة، وتشابه الظروف العائليّة، على الرغم من أنّ الأطفال الموهوبين الآخرين قد لا يكونون واضحين مثل الطفل الأوّل. وتدلّ الأبحاث على أنّ المولود الثاني عادة ما يركّز على استحسان أقرانه وإخوته، ويقلّ اهتمامه بإطراء الآباء أو المعلّمين، لأسباب غير معروفة تماماً حتى الآن.

لقد كتب الكثير عن «متلازمة الطفل الثاني»، بمعنى أن الطفل الأوّل يحصل على كل الامتيازات لأنه الأكبر سنّاً، ويحصل الأصغر على اهتمام خاصّ لأنه «صغير»، أمّ الطفل الوسط فيعامل كما لو أنه من خارج العائلة وليس له دور واضح. وهناك احتمال قليل بأن يكون الطفل الوسط موهوباً أكاديمياً، ولكن الاحتمال الأكبر هو تميّزهم بالمهارات الاجتماعية أو المهارات القيادية، فهم غالباً ما يكونون بمثابة الوسطاء داخل العائلة حيث يقومون بمنع أو تسوية المشاجرات بين الأخوة الآخرين، وهذا يعلّمهم المهارات القياديّة والتعامل مع الآخرين^٤.

الأدوار والمكانة

تعدّ المنافسة على الأدوار والمكانة في العائلة أمراً طبيعياً ومتوقَّعاً. بالطبع، يريد أطفال العائلة كلهم أن يكونوا متميزين ومتفردين في نظر آبائهم. فهم يراقبون آباءهم بحرص؛ كي يتأكدوا من الأمور التي يقدرونها، ويلاحظوا ردّة فعل الآباء على سلوكياتهم وسلوكيات إخوانهم وأخواتهم. وعندما يحصل طفل على استجابة لسلوك معين، سلباً أو إيجاباً، فإنّ طفلاً آخر يحاول تقليده أو تجريب سلوك جديد. ويقارن الأطفال معظم الأحيان كفاءتهم بكفاءة إخوانهم في مجالات متعدّدة، ويتساءلون إن كانوا يستطيعون مثل إخوانهم، أن يجعلوا الآباء يضحكون ويبتسمون؟ هل يستطيعون العزف على آلة موسيقية أفضل منهم؟ هل يعرفون عن السيارات والكمبيوتر مثلهم؟ هل هم رياضيون مثلهم؟ هل هم أفضل في الأمور الأكاديمية، وفي إعطاء التوجيهات؟ تعدّ هذه التقويمات والمقارنات بدايةً لإيجاد دور لهم في العائلة، وإجابة عن أسئلة أخرى، مثل: «ما الذي اعمله بشكل متقن؟» أو «ماذا أضيف إلى هذه العائلة؟»

يشكل الأخوة استناداً إلى هذه المقارنات والمنافسات، سواء أكانت ظاهرة أو باطنة، أدوارهم ومكانتهم في العائلة، فإن بدا أحد الأطفال في المكانة الأولى أكاديمياً، فإنّ الطفل التالي سيحاول أن يكون في المكانة الأولى في مجال آخر، مثل أن يكون اجتماعياً أكثر من إخوته، فالأخ الأكبر يسيطر على الناحية الأكاديمية. وعلى الرغم من أن طفلاً ما قد يمتلك إمكانات ملموسة في مجالات عديدة، إلا أنّ هذه الأدوار عادة ما تثبت وتتأكد، وأحياناً في وقت مبكر. فقد يُوصف أحد أطفال العائلة أنّه «الموسيقار»، ويوصف آخر أنّه «الذكي» وثالث أنّه «المهرج»، أو حتّى «المثير للمشاكل»، وإذا نجح طفل في احتكار أحد الأدوار، فإنّ بقية العائلة تعزّز هذا الدور دون قصد من خلال إعطاء اهتمام خاص لتلك السلوكيات.

تعدّ هذه الأدوار الخاصّة جيّدة من جهة؛ لأنّها تؤكّد للأطفال أنّ لهم مكانة خاصّة، لكنها يمكن أن تكون مقيّدة لهم من جهة أخرى إن اعتقد الأطفال خطأ أنّ أدوارهم تنحصر «إما في هذا أو ذاك»، وأنّ طفلاً واحداً فقط في العائلة يمكن أن يكون متميزاً في مجال معين. فقد يفكر أحدهم ويقول «إن فرح هي الطفلة الموهوبة في العائلة، ولهذا فمن المحتمل أن لا أنضم إلى برنامج الموهوبين». وبالمثل، قد يتردد أحد الأطفال في تطوير إمكاناته في مجال معين خوفاً من ألا يستطيع أن يكون أكفأ من أخيه.

وأحياناً ما تنساب الأدوار الخاصّة بصورة طبيعية من مواهب الطفل الفطرية الموروثة، وشخصيته، واهتماماته، أو مزاجه. ولهذا فإنه توجد لدى كلّ طفل مهارات خاصّة تظهر بسهولة، لكن هذا يجب أن لا يكون سبباً في امتناع أطفال آخرين في العائلة عن تطوير تلك المهارات أيضاً. فإن استمتع طفل بالدروس الموسيقية أو الرياضية، حتّى وإن لم يكن موهوباً فيها مثل أحد إخوته، فإنه يتعيّن على الأب أن يسمح ويشجّع على استمرار تلك الدروس.

كما ترتبط الأدوار والمكانة بتدني التحصيل الأكاديمي، حيث يصبح كثير من المواليد الأوائل الذين ينفون داخل العائلة بأنهم «متميزون» من ذوي التحصيل المتدني إن ما سحّب منه هذا التميّز

في وقت ما، ومُنح إلى طفل آخر في العائلة. ويمكن أن يحصل هذا نتيجة زواج أحد الأبوين، ووجود إخوة غير أشقاء، أو في الحالات التي ينسحب فيها الآباء نتيجة غضبهم، أو يأسهم من الطفل؛ ممّا يتيح لأخٍ آخر أن يحتلّ مكانة جديدة، أو تميّزاً في العائلة. وحيثما وجد «طفل مميّز في العائلة، فقد يشعر الأطفال الآخرون بإهمال والديهم لهم»^٧.

وقبل الانتقال إلى الموضوع التالي، فإننا نطرح هذه الأسئلة: كيف تستطيع العائلة المحافظة على شعور الطفل بالمكانة والأهميّة، وتساعدته في الوقت نفسه على اكتشاف مهارات وأدوار جديدة؟ كيف يمكن للآباء أن يشجعوا التعاون، وأن يثبّطوا المنافسة الشرسة، والمدمّرة في العائلة؟

منافسة الأخوة الأشقاء

يمكن أن يحدث تنافس الأخوة بطرق عديدة، إلا أنه غالباً ما يُعبّر عنه بسلوكيات غاضبة - كلمات، أو أفعال أنانيّة أو حاقدّة، أو النميمة، أو التخويف أو الإزعاج، أو تدمير ممتلكات الآخرين، أو نقدهم، أو لومهم، أو إحراجهم، أو التشاجر معهم. وعلى الرغم من صعوبة بحث الأسباب في وقت وقوع الحدث، إلا أنه يجب على الآباء البحث عن الأسباب بدلاً من التركيز على السلوكيات نفسها. ويمكنك بكل سهولة - إن فهمت الأسباب - أن تستجيب للحاجة بدلاً من الاستجابة للسلوك. لكن هذا لا يعني بالضرورة أن تتجاهل السلوك - مع أنّ ذلك قد يكون أحياناً أحسن مبادرة تقوم بها - وإنما أن تتأكّد من الدوافع وراء السلوك؛ كي تقرّر كيف تتدخّل.

ويمكن أن يفهم الآباء شدّة مشاعر أطفالهم بخصوص إخوتهم باستعمال حيل عديدة ممتعة. قد تتخيّل الأمّ مثلاً أنّ الأب يعود إلى البيت في يوم ما ويقول لها: «عزيزتي، أنا أحبّك كثيراً، أنت إنسانة رائعة جداً، ممّا جعلني أقرر الزواج من امرأة أخرى مثلك تماماً». ستكون ردّة الفعل الأولى بالطبع، صدمة، ثمّ رفض يتبعه إيذاء الزوج، وغضب عارم. وتستمرّ التمثيلية بسيناريوهات جديدة، تتضمّن استقطاب الزوجة الجديدة اهتمام الآخرين ومدحهم؛ لشدّة ذكائها وروعتها. ثمّ يطلب الزوج من الزوجة القديمة أن تسمح للزوجة الجديدة بارتداء ملابسها واستخدام جهاز الحاسوب الخاص بها. لا شك أن ردّة فعل معظم الكبار الذين يقومون بهذا التمرين أو التمثيلية سوف يتسمّ بالغضب الشديد، والإحساس بالتفاهة والرغبة في الثأر. ولذلك، لا تتوقّع أن تكون هذه المشاعر عند أطفالك أقلّ ممّا هي عليه عندك، حيث إنهم لا يمتلكون المنطق ومهارات التفكير الموجودة لدى الكبار، التي تساعدهم على فهم التغيير. وبناء على ذلك فمن غير المستغرب أن تكون ردّة فعل الطفل قويّة عندما يعتقد أنّ أخاً له سيأخذ مكانة في العائلة.

البحث عن الاهتمام والاعتراف والسلطة

على الرغم من أنّ المنافسة ليست سلوكاً عرضياً، إلا أنّ الأطفال قد لا يدركون الهدف من أعمالهم. وعادة ما يتنافس الأطفال على شيء يشعرون بأهميّته - الاهتمام، أو الاعتراف، أو السلطة.

ومثل الأطفال جميعهم، لا يحتاج الأطفال الموهوبون فقط إلى اعتراف آبائهم بحبهم لهم، بل

يريدونهم أن يعترفوا أيضاً بقيمتهم وكفاءتهم. وهم يقارنون أنفسهم بإخوانهم، ويسيئون كفاءتهم والتهديدات المحتملة، ويتصرفون تبعاً لذلك. فإن تفوق أخ في نشاط معين، مثلاً، فإن الآخر قد يتوقف عن ذلك النشاط، وإن تردّد واحد، وأبدى قابلية للانسحاب، فقد يندفع أخ آخر كي يعرض قدراته الخاصة. وقد يصل التنافس في بعض العائلات حدّ التطفّر، ويكون شديداً وبغيضاً، حيث يشي الأطفال بإخوتهم بشكاوى، منها على سبيل المثال: «إنه يجلس في مقعدي»، «إنها تنظر إليّ»، أو حتى «إنه يتنفّس هوائي». إنهم يحاولون أن يظهرُوا بشكل أفضل بوساطة إظهار أخطاء إخوتهم.

كلّما شعر الأطفال أن الآخرين لا يقدرّونهم ويتقبلونهم لذواتهم ولأفعالهم، زادت احتمالية منافستهم، ومقارنة أنفسهم بإخوانهم، وانشغالهم بإجراءات مثيرة لجلب انتباه الآباء واهتمامهم، والتفوّق على إخوانهم. على سبيل المثال، استعمل طفل ذكيّ في السابعة من عمره مفرداته المتقدّمة للحطّ من قدر أخيه، وتعذّبه بقوله: «يا الله! أنت مغطى بالكساء والأردية على كلّ أنحاء جسمك، لا أريد أن ألعب معك». لقد استغلّ هذا الولد جهل أخيه الأصغر بالمفردات، وعدم فهمه الكلمات التي استعملها للسخرية منه. فعندما يشعر الطفل الموهوب أنّه لا يحظى بما يكفي من الانتباه والاهتمام؛ لأيّ سبب من الأسباب، فإنّه يصبح ماهراً جداً في جلب الانتباه إليه، وقد يبحث عن ذلك بوساطة الأعمال الإيجابية، فقد يتصرّف مثل إنسان ناضج في نقاشاته مع الكبار، وقد يلفت الانتباه بطرق أقلّ إيجابية، فيوجّه مثلاً سيلاً من الأسئلة لضمان تركيز الكبار، ولفت أنظارهم إليه. وبما أنّ معظم الأطفال الموهوبين يمتلكون مقدرة لفظية، وذكاء حاداً، فإنهم يستطيعون العمل على لفت انتباه الآباء إليهم، فيقضون معهم وقتاً أكثر من إخوتهم.

يضاف إلى ذلك أنه حتى الأطفال الموهوبون المرتاحون الذين يشعرون بالتقدير والاحترام، يمكن أن يطلبوا من الكبار مزيداً من الوقت والاهتمام؛ لأنّ لديهم الكثير من الاهتمامات، وحبّ الاستطلاع لأشياء كثيرة. ومن السهل على الآباء أن يقضوا وقتاً أطول واهتماماً أكثر بطفل معين، خاصة إن كان هذا الطفل موهوباً جداً. طبعاً يدرك الأخوة أنّ وقتاً أطول، واهتماماً زائداً قد مُنح لطفل واحد، ويكاد يكون تحدياً للآباء أن يقضوا وقتاً متساوياً مع الجميع. فقد يحتاج طفل معين أحياناً، إلى فرص مدرسية غير عادية، أو دروس، أو تعليم متقدّم؛ بسبب موهبة غير طبيعية، وربما بسبب إعاقة. وحينها سوف يستغرق الأب الوقت في توجيه طفله إلى أنشطة متخصصة وضرورية، فيختلّ توازن الاهتمام، وتغدو محاولات إحداث المساواة بين الأطفال جميعهم أمراً صعباً؛ ممّا يدفع الأطفال إلى لفت نظر آبائهم لذلك، إمّا بشكل مهذّب، أو فظّ، فلا تستغرب حينئذٍ إن اشتكى أحد الأطفال، أو تمرّد كي يحصل على حصّته من الاهتمام عندما يحدث عدم التوازن.

وإضافة إلى البحث عن السلطة من خلال التنافس، فقد يحصل الأطفال الموهوبون أحياناً على المزيد من السلطة والمكانة المتميّزة نتيجة ظروف العائلة، إذ يمكن مثلاً أن ينجرّف بعض الآباء- خاصة في حال الأب الوحيد أو الأم الوحيدة- إلى جعل الطفل الموهوب العضو الرئيس في العائلة، فيصبح ذا نفوذ خاصّ فيها. وقد يرى الأب أو الأم أن هذا الطفل يبدو قادراً، وعارفاً، وصارماً، ما يسهل تسليمه السيطرة على القرارات، منها على سبيل المثال: عن ماذا ستحدّث العائلة، وأين ستذهب في

إجازة، وكُمّ النقود التي ستنتفق في أنشطة معيّنة. وعلى الرغم من أنّ الأخوة قد يذعنون لذلك، إلاّ أنّهم معظم الأحيان يضررون الامتعاظ، وربّما ينسحبون من العائلة في مثل تلك الحالات.

ما الأسباب الأخرى التي تجعلهم يتنافسون ويتشاجرون؟

تتعدّد أسباب الشجار والتنافس بين الأخوة، فقد تتراوح بين الغيرة، وجلب الانتباه، والإحباط الضمني، وكثرة التثييط أو الكبت. وقد يشعر الطفل أحياناً أنّه مهممل، ووحيد، ولا يُمنح مكانة مناسبة بين أخوته، أو يعامل معاملة غير عادلة. فإن عرفت الدوافع والمشاعر التي تحرك هذا السلوك، يمكنك أن تستجيب بشكل أكثر فاعليّة، ليس فقط للسلوك أو الموقف، وإنّما لتوكّد للطفل أنّ له مكانته في العائلة.

ثمّة منافسة مختلفة، أقلّ وضوحاً، تظهر بين الأخوة الأكثر سليبيّة واعتماداً على الآخرين، فقد يحاول هؤلاء الأخوة تقليد سلوك أخ آخر إن شعروا أنّه السلوك المفضّل. يمكن أن يصدق هذا بشكل خاصّ على الطفل الأكبر من الرضيع، أو الطفل الذي بدأ يتعلم المشي الذي أخذ لتوهّ يكتسب الكثير من المهارات. ومع أنّ أخيه الأكبر منه يتعلّم أيضاً الكثير من المهارات، إلاّ أنّه لا يحظى بالمديح والإطراء الذي يحظى به الطفل الذي يحاول الحبو أو رفع نفسه عن الأرض، أو الطفل الذي بدأ المشي، أو الكلام أو الركض أو التسلّق. يحاول الأخ الأكبر حينئذٍ أن يعرض مهاراته (أو يحاكي سلوكات شبيهة بتلك التي يعملها الصغير) في كلّ ما يجلب له المديح، على الرغم من أنّه أتقن هذه المهارات قبل سنوات. وفي المقابل، قد يقلّد هذا الطفل طفلاً أكبر منه إذا شعر أنّ سلوكاته تحظى بتقدير أكبر، وقد يقلّد أبويه أحياناً؛ لجلب الانتباه والتقدير. من ناحية أخرى، قد يكون هذا التقليد إيجابياً، ويشكّل مظهراً طبيعياً مناسباً ومنتظوراً يساعد الأطفال على تجربة سلوكات جديدة. غير أنّ بعض الأطفال قد يطيل الوقت في التقليد، ويغالي فيه إلى درجة أنّ الواحد منهم يصبح نسخة من الشخص الآخر. ويبدو أنّ هؤلاء الأطفال عادة ما يشعرون أنهم يرفضون ذاتهم فلا يجرؤون على الظهور بشخصياتهم الحقيقيّة، ولهذا يسعون إلى انتحال دور آخر. مثلاً، قد يقلّد الطفل أخاه في سلوك معيّن، مثل لعبة كرة السلة، لا لأنّه يمتلك القدرة والكفاءة اللازمين، وإنّما فقط بسبب تقدير أحد الوالدين لأخيه لبراعته في تلك اللعبة.

القدرات غير المتساوية بين الأخوة الأشقاء

عادة ما يتقارب المستوى العامّ للقدرات بين الأخوة، في معظم العائلات. ومع ذلك، فقد تكون قدرات واحد أو أكثر من الأشقاء أقلّ من الآخرين، أو أنّهما قد يكونا موهوبين لكنهما يعانيان أيضاً من صعوبة التعلم. وحتى عندما يكون مستوى القدرة العامة متشابهاً بين الأشقاء، فإنّهم قد يختلفون في مجالات الكفاءة وأساليب التفكير. وتعدّد هذه الاختلافات من عناصر علاقات الأخوة، ولها دلالاتها الضمنيّة في سلوكات الآباء.

يؤثّر تاريخ العائلة، وتقاليدها وقيمها في سلوك الآباء، فقد تفضّل العائلة أحد أنواع القدرات على الآخر، مثل تفضيل الموهبة الخطابية على المقدرة الحسابية، أو تفضيل المهارات الرياضيّة على المهارة في الرياضيات أو غيرها. ويمكن أن تكون الإشارات حول ذلك صريحة أو ضمنيّة، فقد يرسل الآباء

رسائل دون قصد توحى بأنهم يفضلون موهبة ما عن الأخرى، وقد تُشعر الكلمات، أو لغة الإيحاءات، أو أسلوب حياة العائلة الطفل أنّ لا أحد يُقدّر موهبته الفريدة حق قدرها. ومن هذه الإشارات: هل تشتري العائلة تذاكر لحضور مباراة لكرة القدم؟ هل هناك ملصقات عن كرة القدم في غرفة الطفل أو على قميمه؟ هل تتابع العائلة مباريات كرة القدم على التلفاز؟ إن الوالدين دون إدراك منهما قد يبعثان للطفل من خلال مثل هذه الإشارات برسائل تقول أن موهبة ما لها قيمة أكثر من المواهب الأخرى.

وفي الحقيقة أننا لا نريد أن يشعر الأطفال الذين لا يمتلكون القدرة في مجال معين أنّهم غير جديرين باهتمامنا ومحبتنا. وإذا ما شك الأطفال في تقديرنا لهم، فمن المحتمل أن يشعروهم ذلك بالامتعاض، فيلجئون إلى التعبير عنه بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ورغم وعينا لهذه الحقيقة، إلا أن من السهل على الآباء أن يهتموا الأطفال الأقل قدرة ويركزون اهتمامهم على تحقيق مطالب الطفل الموهوب، كما يمكن أن يكون الأطفال الموهوبون أنفسهم كثيري النقد لإخوتهم، ويقولون أشياء جارحة، مثل: «إنّه غبي».

وعلى الرغم من أنّ الأطفال قد يتشابهون في القدرات، إلا أنّهم قد يختلفون تمامًا في أنماط التفكير ومجالات الذكاء. ويستطيع الآباء إبراز مواطن القوة، ومواطن الضعف عند الأطفال مدركين الاختلافات بين الأخوة، دون إصدار أحكام. لقد بينا في الفصل الأول كيف يمكن تكييف أنماط التفكير المختلفة للمهام المختلفة، ووصفنا أيضًا الذكاءات المتعددة، والمظاهر المتعددة للقدرات، والتطور غير المتزامن الذي يحدث في الأغلب عند الأطفال الموهوبين. ونحن نرى أن هذه المواضيع مناسبة جدًا لمناقشة القدرات غير المتساوية عند الأخوة الأشقاء. ولكن، هل القدرات غير متساوية في بعض المجالات فقط؟ هل لدى الطفل «الأقل موهبة» قدرات أكبر في مجالات معينة؟ هل يمكن أن يكون الطفل «متأخر التفتح»، أو من النوع الذي لم يجد الوضع المناسب حتى الآن ليعرض قدراته؟

من السهولة بمكان أن تكون نظرة الأب أو المعلم للموهبة ضيقة، أو تفوتها رؤية بعض المواهب الخاصة لدى الطفل. ولهذا، يتعين عليك بصفتك أبا أو معلمًا أن توسع مرمى شبكتك، وتبحث عن مواطن القوة لتعززها في مجالات عديدة. ولا تنس أنه إذا كان طفلك الأكبر موهوبًا، فمن المحتمل وجود فرص للموهبة لدى أطفال آخرين في العائلة، حتى وإن كانت قدراتهم ومواهبهم غير واضحة، أو ليست بمستوى الموهبة نفسه عند طفل آخر.

فإن لم يكن الطفل متفوقًا في المجال الأكاديمي، ولم يُحدّد على أنه موهوب أكاديميًا، فقد قد يكون من جانب آخر، لطيفًا وعطوفًا على الآخرين، أو ربّما يكون جيدًا في ممارسة لعبة ما، أو في القيادة، أو كسب الأصدقاء. وبناءً على ذلك، عليك أن تبحث عن القدرات والمواهب الخاصة بكل طفل، ثمّ عزّز هذه القدرات بالاعتراف صراحة أن الطفل المعني قادر وأنه يستحقّ الرعاية، وأنك فخور بقدراته. ومن المهم لغايات تقدير الذات أن يشعر الأطفال أنّهم محبوبون، وقادرين، وأن يلحظوا أنّ كل طفل في العائلة يحظى بتقدير متساوٍ.

ما مدى استمرارية أنماط الأخوة؟

إذا كنت أنت بالذات أختًا، فإنّك تعرف أنّ الأنماط التي تتطوّر في زمن الطفولة تدوم مدى العمر. فأنت تعرف في اجتماع العائلة أيّ أخ سيسيّطر على الحديث، وأيهم سيشتكي، وأيهم سيكون مسؤولاً عن اتّخاذ القرارات كلّها، وأيهم سيكون مُهملاً. وعن ذلك تقول إحدى الأمهات إنّها بالرغم من كونها محامية مشهورة وناجحة، إلّا أنّها ما زالت تعامل من قبل إخوتها الأكبر منها على أنّها طفلة عاجزة.

وقد أثبتت الدراسات أنّ الأنماط العائليّة غالباً ما تدوم، ونادراً ما تتغير، خاصة بعد ثبات الأدوار وممارستها في مواقف عديدة. وعلى الرغم من أنّ هذه الأدوار قد لا تكون مريحة للبعض، إلّا أنّه يُتوقّع بقاؤها مقبولة لدى الآخرين، وعادةً ما يجامل أفراد العائلة بعضهم بعضاً بطريقة تمنع الشجار أو إثارة الخلاف. وعندما يشعر أفراد العائلة كلّهم أنّهم محبوبون ومقبولون، فإنّ علاقات جيّدة يمكن أن تنشأ بينهم بغضّ النظر عن أدوارهم، في حين تتأثّر العلاقات على نحوٍ سلبيّ إن طال أمد الامتعاض بينهم.

نماذج الأدوار

لا بد وأن تتذكر ماذا كان دورك في العائلة عندما كنت في طور النمو؟ هل كان التنافس بين إخوتك شديداً؟ هل كنت أنت المسيطر على إخوتك؟ هل كنت أنت الأخ الذي يحاول مجارة إخوته الكبار؟ ما المعتقدات التي كوّنتها، عندما كنت تتنافس مع أحد إخوتك؟ هل كنت تقرّر: «عليّ أن أكون أفضل منه، أو على الأقلّ مثله»؟ هل استمرّ دورك في العائلة ومعتقداتك إلى سنّ الرشد؟

صدّق أو لا تصدّق، يعدّ الآباء نماذج الأدوار الرئيسيّة لسلوكات الأخوة. تذكّر علاقاتك مع إخوتك، وكيف كان أبواك يتعاملان معها. كيف تصوّر إخوتك وأنت تتحدّث مع أطفالك؟ هل تكرّر نماذج تعلّمتها في صغرك؟ وهل هي نماذج تريدها في عائلتك اليوم؟

يتعيّن علينا إن أردنا أن نكون نماذج أدوار فاعلة لأطفالنا، أن نتذكّر طفولتنا، وكيف كان تأثيرها في مرحلة رشدنا. هل طوّرتنا في طفولتنا المبكرة معتقدات خاطئة، مثل: «لا يمكنني أن أثق بأيّ شخص أكبر مني»، أو «لا يمكنني الثقة بالرجال»؟ هل ما زالت مثل تلك المعتقدات تؤثر في الطريقة التي نعيش بها حياتنا؟ لو تفحصنا معتقداتنا الخاطئة، ونمط حياتنا الحديث لوجدنا، مثلاً: «عندما كنت طفلاً كان عليّ التنافس باستمرار، أو كان عليّ أن انضبط باستمرار، أو كان عليّ أن أذافع عن نفسي، أو أكافح كي تسمع وجهات نظري». يمكننا أن ندقّق النظر بالطريقة التي نتناول بها حالياً ليس فقط علاقاتنا بإخواننا، وإنّما علاقاتنا بالآخرين أيضاً، فهذا التّبصّر يقدّم لنا فرصة أفضل لتعديل معتقداتنا وسلوكاتنا لتصبح أفضل لنا ولعائلاتنا، وتسمح لنا بأن نكون قدوة أفضل لأطفالنا.

نريد - بصفتنا آباء - زيادة التعاون، وعمل الفريق في العائلة. لا نريد أن يشعر الأطفال أنّهم يصارعون للحصول على السلطة، وأنّه يتعيّن عليهم أن يمثّلوا كي يحظوا باهتمامنا، وأنهم لا يمكن أن يكونوا جيّدين لدرجة أن نرضى عنهم، أو أنّ أحدهم موضع تقدير أكثر من الآخرين. نستطيع أن نكون نموذجاً للتعاون بين أطفالنا عندما نكون نموذجاً للتعاون مع الآخرين، ونحلّ النزاعات بطريقة إيجابية

في علاقاتنا مع الكبار في العائلة والزلاء في مكان العمل. قد يكون لك أصدقاء تريد أن يكون تفاعلهم مع بعضهم بعضاً نموذجاً تحتذي به. وإذا كان الأمر كذلك، حاول معرفة الكثير عنهم وعن تفاعلهم معاً، وابحث عن أشياء يمكنك أن تحاكيها وتستعملها في تفاعلاتك. وبالطبع، ليس الآباء وحدهم هم النموذج الوحيد لأدوار العلاقات بين الأخوة، فالتلفزيون، والأفلام، والمعلمون، والآباء والأطفال الآخرون يقدمون نماذج عن كيفية تلك العلاقات. ولسوء الحظ، فإن وسائل الإعلام أحياناً ما تصوّر التفاعل بين الأخوة على صورة إهانات، وسخرية، وسلوكات وضيعة، وانتقام، وحقق. ولهذا، يتعيّن على الآباء حماية أطفالهم من نماذج الأدوار العدوانية هذه، حتّى وإن كان المشهد على سبيل الفكاهة، وأن يعبروا عن عدم رضاهم عن تلك السلوكات، ويشرحوا للأطفال أسباب عدم ملاءمتها للتعامل مع الناس الذين نحبهم.

اقتراحات عملية

حدّد وقتاً خاصّاً: ركّزنا في فصل سابق من هذا الكتاب على أهمية توفير الوقت واستثماره. ولتحقيق مزيد من الفائدة، خصّص لكلّ طفل عدّة دقائق على الأقلّ في اليوم الواحد تبدي له فيها اهتماماً متواصلاً، فهذه الإستراتيجية مفيدة بصورة خاصّة في منع التنافس بين الأخوة أو تقليله، كما تُشعر الطفل أنّك تحترمه وتقدره لشخصه فقط.

ضع حدوداً: وضح لأطفالك السلوكات غير المقبولة، مثل الضرب، والركل، والتسبّب في الأذى، والتنازع بالألقاب، ورمي الألعاب أو تكسيرها، والمزاح المؤذي. قد تعدّ بعض الحدود، مثل: «التسبّب في الأذى» عامّة، بينما يعدّ بعضها الآخر شخصياً، إذ أن القيم التي تؤمن بها هي التي سوف تقرّر القيود المناسبة لعائلتك. وعند الانتهاء من وضع القيود وتوضيح القوانين، يصبح التدخّل وما يتوقع منه أمراً سهلاً. فإن رأى أحد الوالدين أنّ الأمور تتفاقم إلى الحدّ الذي سيتأدّى فيه أحد الأطفال، يمكنه القول بحزم: «الضرب ممنوع، أنتما الاثنان بحاجة إلى وقت للهدوء، فليقتضي كلّ منكما عشر دقائق في غرفة منفصلة، وبعدها يمكنكما إيجاد طريقة أخرى لحلّ خلافاتكما». لاحظ أنّ هذا السلوك لا يوقر للطفلين وقتاً للتهنئة فقط، وإنّما لإيجاد حلّ للمشكلة. ولو لم تضع مسبقاً حدوداً حازمة لاستغرق الأطفال وقتاً كي يفهموا أنّك تعني ما تقول، ولكن يمكنك تذكيرهم بالقوانين باستعمال عبارات مثل: «تذكّر القانون الجديد، لا يجوز الضرب، أو التسبّب في أذى أيّ أحد».

وأحياناً ما يضع أحد الوالدين قانوناً يمنع الضرب في البيت. وعندما يبدأ الصراخ والعراك، فإنه يقوم ببساطة بتذكير الأطفال بالقانون ويطلب منهم حلّ خلافهما في الخارج. وفي معظم الأحيان، غالباً ما تكفي هذه الإستراتيجية وحدها لوقف الشجار، لأنّ هدف العراك يكون في المقام الأول الاستحواذ على شيء ما مثل لعبة، أو جذب انتباه أحد الوالدين، وهذا لا يتوافر في الخارج.

عزّز وجود بيئة مريحة: يحقّ لك بصفتك أباً أن تفرض الأجواء التي تريدها في بيتك، ولهذا فإن وضع الحدود هو الخطوة الأولى. فأنت لك الحق في الهدوء والسكينة، ويمكنك أن تقول، مثلاً: «إن هذا الضجيج يؤلم أذنيّ. أرجوكم أن تتحدثوا بصوت هادئ». إن مثل هذا الطلب يبعث برسالة إلى الأطفال حول الجو الذي يجب أن يسود البيت.

يتعيّن عليك أن تتخذ موقفاً ثابتاً من السلوك غير المقبول، لكن تجنّب أن تنتقد أو تعاقب بشكل علنيّ. وكما ذكرنا سابقاً، فإنّ العقوبة القاسية تدمّر علاقاتك مع طفلك، وتدفع إلى مزيد من التنافس القويّ بين الأخوة وتقضي على فرصك في إيجاد جوّ لطيف ومريح. إن العقوبة القاسية أو ردة الفعل العنيفة قد تجعل الأطفال يتنافسون في ما بينهم بشدّة ليؤكّدوا لأنفسهم أنّهم على الأقلّ مثل أخوتهم، وغالباً ما يبحثون عن طرق ملتوية للتنافس في محاولة لتجنّب العقوبة، وإلحاقها بإخوانهم؛ ممّا يرفع من مكانتهم. كما أن ردة فعل الأب العنيفة والمبالغ فيها يمكن أن تُشعر الأطفال أنّهم مذنبون، وغير آمنين، أو غير مقبولين في العائلة.

تجنّب المقارنات أو قلّل منها قدر الإمكان: لا يمكننا أن نتخلص بسهولة مما علق في ذاكرتنا عن أيام طفولتنا، فهناك كثير من الكبار الذين ما يزالون يقارنون أنفسهم بإخوتهم، مثل قولهم: «كان أخوتي أكثر ذكاءً مني، وحصلوا على علامات أفضل مني، لكنني كنت اجتماعياً أكثر منهم، وأعتقد أنني أستطيع التواصل مع الناس بشكل أفضل»، أو: «لقد كنت عبقرى العائلة، ولا زلت»، «لقد كان أخي مزعجاً حقاً، وقد كانت مشكلته أنّه كان عنيداً جدّاً؛ لذلك قررت أن لا أكون مثله». نحن نعرّف أنفسنا بالمقارنة مع الآخرين في العائلة، ولكن كيف يمكننا أن نجنّب أطفالنا تلك المقارنة؟

إننا نعتزّف بصعوبة تجنّب المقارنات بالكامل، لكن يمكننا أن نقلّل من تكرارها، ومن حساسيّتنا لها، ومن طريقة تعامل أطفالنا معها. إضافة إلى التقليل من مقارنة الأطفال بعضهم بعضاً علانية، يتعيّن على الآباء عند حديثهم عن أطفالهم مع الآخرين أن يتجنّبوا مقارنة أطفالهم عندما يتحدثون مع الأصدقاء، خاصّة إذا كان الأطفال يستمعون إلى تلك المحادثات. وعندما تتحدث عن أطفالك مع الآخرين، ننصحك بأن يكون هذا الحديث على انفراد. قد لا يدرك الآباء أثر ما يقولون في أطفالهم، فهم قد يقولون أشياء منها، مثلاً: «طفلي الأكبر هو «المجتهد» إنّهُ يحصل على درجة (أ) في كلّ شيء، وطفلي الثاني هو «الاجتماعي»، فهو يقضي كلّ دقيقة فراغ مع أصدقائه». وقد يعلّق طفل موهوب عندما يسمع هذا الكلام قائلاً: «أبي يحبّ (أخي الأكبر) أكثر مني؛ لأنّه يحصل على درجات جيّدة». من المحتمل أنّ الأم أو الأب لم يكن يقوم طفله، وإنّما كان يشير فقط إلى الفروق بين أطفاله. لكنّ الطفل فسّر ما قيل بأسوأ طريقة ممكنة؛ لأنّه يقارن نفسه بإخوته، والأم أو الأب يقارنان ذلك أيضاً من وجهة نظر الطفل، فهو أصلاً يتخيّل أنّكما تتحدّثان عنه للآخرين، وقد تأكّد الآن من ذلك.

قد يتعلّق بعض الآباء بأحد أطفالهم دون أن يدركوا ذلك، ويحابونه دون قصد. يمكن أن يقول الأب مثلاً: «محمد نابغ في الفنّ مثل جدّه تماماً»، فهو بذلك يرسل رسالة مفادها أنّ «محمدًا» مفضّل بطريقة أو بأخرى. و أحياناً قد يرتبط زهو الآباء وإعجابهم بأنفسهم بتحصيل الطفل الموهوب، حيث يمكنهم تحقيق آمالهم وأحلامهم من خلال ذلك الطفل. ومن غير المستغرب أن يُحبّط أطفال آخرون في العائلة بسبب ذلك.

ومن المرجّح أن تؤثر مقارنة الإنجازات سلبياً- على الأخوة في بعض الأحيان، أو على الطفل الموهوب في أحيان أخرى- لأنّ ذلك يتضمّن تقويماً غير معلن لقيمة الشخص. ويحبّ الأطفال المتنافسون في العادة التفاخر بالدرجات والتقارير المدرسية، ويتباهى الواحد منهم إن كان هو

أكثرهم حصولاً على الدرجة «أ». في هذه الحالة يمكن أن يقول الأب، مثلاً: «لسنا هنا بصدد مباراة على بطاقة تقرير العلامات. هذه تقارير أعمالكم للأسابيع الستة الماضية. أريد أ، أجلس مع كل منكم على انفراد لأعرف ما يقوله المعلم، وكيف يشعر كل واحد منكم بخصوص تقدّمه». إن أهم رسالة يوصلها الآباء من هذا الحديث هي أنّ كل طفل شخص متميز بذاته، وأنهم يريدون من كل واحد من الأطفال أن يبذل جهده، لكن المنافسة ليست ذات أهمية لديهم.

صف ولا تقارن: من التمارين المفيدة للآباء أن يحاولوا معرفة كيف يشعرون لو كان الواحد منهم طفلاً يقارن بأخوته^{١١}. تخيل كيف تكون الأمور لو سمعت شريك حياتك يعلّق على أعمالك، فيقول مثلاً: «كيف ترك مشروع العلوم الخاص بك حتى الدقيقة الأخيرة؟، أو «أخوك ينجز عمله دائماً في الوقت المحدد»، أو «لماذا لا تكون أنيقاً مثل أخيك؟ إنه حسن الهندام دائماً، والنظر إليه يفرح القلب». لو وضع أحدهم مكان هذا الطفل، فسوف يشعر الكبار بالغضب، أو فقدان الأمل في إرضاء الشخص الذي يُطلق هذه التعليقات، فالكبار لا يحذون مقارنتهم بالآخرين، ويحبون أن يُقوّموا بناءً على أعمالهم، لا بناءً على أعمال الآخرين. ولهذا إن أفضل رسالة يمكن أن ترسلها لطفلك هي: «عند الضرورة سوف أقومك بناءً على أعمالك فقط، وليس بناءً على «مقياس» ما وضعه أحد إخوتك».

ولكن، كيف يقاوم الآباء إغراء المقارنة؟ يستطيع الآباء ذلك من خلال وصف ما يحدث بدلاً من المقارنة - أي وصف السلوك الذي لا يحبه - أو وصف ما يجب عمله، دون المقارنة بطفل آخر. مثلاً، بدلاً من أن تقول لطفلك: «أنت تأكل مثل طفل صغير، حيث يسقط الأكل على قميصك كله»، يمكنك أن تقول له: «يوجد طعام على قميصك»، دون أن تقارنه بالطفل الصغير. عندها يمكن أن يمسح الطفل الطعام عن قميصه بمنديله الورقي، أو أن يلبس قميصاً نظيفاً. وبدلاً من قولك: «لماذا لا تعلق معطفك مثل ما فعل أخوك؟»، يمكنك القول: «لا يسرني رؤية معطف على الأرض، فالمعطف مكانه العلاقة في الخزانة». إن مثل هذا القول يتيح للطفل فرصة لتعديل سلوكه. وعندما يستجيب الطفل يمكنك القول: «رايتك تعلق معطفك، وأنا أقدر لك ذلك، فأنا أحب أن يكون مدخل بيتنا مرتباً^{١٢}. يتعين عليك، إذن، أن تصف ما ترى، وما تشعر به، وما يجب فعله. عندما ينجح الطفل مرة أخرى، صف ما ترى وما تشعر به. فإنك بذلك تعرض المشكلة دون توريث أخ آخر فيها، وتتعامل معها مباشرة، وتوجه الطفل إلى السلوك الذي تريد، مهياً له بذلك فرصة للنجاح؛ ممّا يسمح للطفل بالاستجابة الفورية بعيداً عن المقارنات الجارحة.

عندما يلجأ الآخرون إلى المقارنات. قد يلجأ بعض الأقارب، أو الجيران، أو المعلمين، أو آخرون أحياناً إلى المقارنات، والمبادرة بتعليقات طائشة، فيقارنون مثلاً أحد الأخوة بأخ آخر بطريقة تثير التنافس بين الإخوة.

وعندما يقارن أي شخص طفلك بأي طفل آخر، أطلب إليه أن لا تكون المقارنة علنية وعلى مسامع الأطفال. وأطلب إليهم أيضاً أن يتجنبوا ما أمكن مقارنة أحد الأطفال بطفل آخر. ذكّرهم أنّ كل طفل هو فرد له نقاط قوة، ونقاط ضعف، وأن الاختلافات بينهم أمر طبيعي. صحيح أنك قد لا تستطيع دائماً أن تضبط كل ما يقوله الآخرون، ولهذا فإن المقارنات الضارة لا بد أن تقع، لكنك تستطيع أن

تُحدِث توازنًا مضادًا لأيّ أذى، وذلك بجعل الطفل يعرف أنك تقدّر مجالات قوّته وقدراته. اجعله يعرف أنه متفرد، وأنتك تقدّر هذا التفرد.

قلل تدخلك إلى الحد الأدنى: يتشاجر الأخوة كلّهم، ويتشاحنون، ويتجادلون، وقد يتقاتلون. ونحن نوصي بأن تتجاهل التشاجر بين الأخوة إلا إذا وصل إلى حدّ تعتقد عنده أن تدخلك أصبح ضروريًا. إنهم يتشاجرون معظم الأحيان أو يتجادلون لجلب انتباه الأب فقط، وطلب تدخله، أو لوضع أحد الأخوة في مشكلة؛ كي يبدو الآخر أفضل منه. عندما تسمح لنفسك بالتورط، فإنك تعزّز الشجار بينهم؛ لأنك توليهم الاهتمام الذي يريدون. ولو أنك تتجاهل أصواتهم، وتستمرّ في عملك، فإنك توصل إليهم اعتقادك أنّ هذه مشكلتهم، ويتعيّن عليهم هم حلّها وليس أنت، وأنّ لديهم الكفاءة اللازمة لحلّ مشكلاتهم. وإن تشاجر اثنان من أطفالك يمكنك أن تقول لهما: «أعتقد أنّكما تستطيعان حلّ المشكلة وحدكما، لذلك لن أتدخل». ولا شك أن القدرة على حلّ النزاعات والمشكلات تشكّل جزءًا مهمًّا من نشأة الشخص، ولهذا يعدّ استمرار تدخلنا عائقًا يحول دون تعلّم تلك المهارات، فقد يحتاج الأطفال الصغار إلى نماذج أو إرشاد لحلّ النزاعات، في حين قد يتمكّن الصغار الموهوبون من تعلّم حلّ النزاعات وحدهم.

رُكّزنا في الفصل الخاصّ بالضبط من هذا الكتاب، على ضرورة «أخذ الشراع بعيدًا عن الريح». ويمكن أيضًا استعمال هذا الأسلوب عندما يتشاجر الأخوة ويحاولون جذبك إلى جدالهم، فعادةً ما يتوقّف الشجار عندما يذهب المشاهدون بعيدًا، لذلك؛ ابتعد عن مكان الجدل، اذهب إلى غرفة أخرى، واعمل فيها، أو شغّل المكينة الكهربائية، فإنّ صوتها سيخفّض من صوت الجدل، وسيكون بوسعك تجاهله، كما سيمكّنك ذلك من متابعة الموقف؛ كي يتسنى لك التدخل عندما تستدعي الحاجة ذلك.

اعترف بالمشاعر: يمكنك حتى عندما سلوكًا معيّن الاعتراف والقبول بالمشاعر التي حرّكت ذلك السلوك، تعدّ المشاعر والأحاسيس ضروريّة في أيّ تواصل، وتوصف المشاحنات بأنّها نوع من أنواع التواصل. فإن استطاع الطفل أن يصف ويعبّر بالكلمات عن المشاعر المرتبطة بالنزاع، أو عندما يستطيع الأب مساعدة الطفل في التعبير عن مشاعره بالكلمات، فإنّ الطفل يحصل على بعض الراحة الفوريّة من الألم والأذى الذي يحس به، ثمّ يستطيع بعد ذلك أن يركّز بصورة أفضل على إيجاد حلّ لمشكلته. وفي هذا الصدد، فإننا نقترح الخطوات الأربع الآتية^{١٣}:

— أولًا، راقب المشاعر المسبّبة لذلك السلوك واعترف بها. لماذا حصل ذلك الجدل أو تلك المنافسة؟ ما الذي حرّك التشاحن والشجار؟ من أين يأتي الغضب؟ هل يحاول الطفل الحصول على الاهتمام، أو النفوذ؟ أو الظهور بشكل أفضل من أخيه؟

— ثانيًا، حاول أن تصف مشاعرك بقول أشياء، منها مثلاً: «قل لي إن كان هذا صحيحًا أم لا. أنت لا تحبّ أن أقضي وقتًا طويلاً مع أخيك، وتشعر عندها بالأذى والغضب»، أو «أنت تشعر بالنزاع عندما تعتقد أنّ أخاك الأصغر يقوم بأعمال لإثارتك فقط». إن مثل هذه الكلمات تساعد الطفل على تحديد مشاعره، وإن كنت مخطئًا فإنّ الطفل يمكن أن يصححك.

— ثالثاً، يمكنك أن تقدّم أمنية للطفل، حتّى وإن كانت غير قابلة للتحقيق، منها مثلاً: «أراهن على أنك تتمنى ألا يكون الطفل الصغير هنا أحياناً»، أو «أراهن أنك تتمنى أن تكون الطفل الوحيد هنا، وألاً تتشارك في ألعابك وأشياءك الأخرى مع أخٍ آخر»، أو «أعتقد أنك تتمنى أن يعتني أخوك بملابسك عندما يستعيرها». إن هذا يساعد على إحداث التقارب بينك وبين الطفل، وتثبت له أنك تفهمه وتدرّك أحاسيسه جيّداً.

— أخيراً، يمكن أن تقترح حلّاً. قد تقول لطفلك مثلاً: «تستطيع إخبار أخيك مشافهة بمدى غضبك، قل له: «لا أريدك أن تستعير ملابسي مرّة أخرى دون إذني»، أو يمكنك وضع علامة على خزانة ملابسك تقول: «ملك خاص، ممنوع الاقتراب». هذا النوع من النقاش مع الأب يُشعر الطفل أنك تتقبّل مشاعره، ويتعلّم هو أيضاً أن يعبر عن غضبه مباشرة بالكلمات بدلاً من الأعمال المؤذية. وفي الوقت نفسه فإنك توجّه الطفل إلى حلّ معقول دون أن تحلّ له المشكلة. وهكذا تزيد من كفاءته في التعامل مع النزاعات.

لا تنحاز: يفضّل بقاءك على الحياد، وعدم الانحياز لأيّ من أطفالك عند حدوث التشاجر بينهم، وعدم محاولة تحديد من منهم المتسبّب في ذلك الشجار ومن هو على خطأ، فالأطفال الموهوبون يكونون معظم الأحيان أكثر خبرة في المراوغة، والمناورة، والتبرير، والجدل. ومن الأفضل التوصل إلى نتيجة مع الطفلين كليهما، أو إخبارهما أنك واثق من أنهما يستطيعان التوصل إلى نتيجة معقولة. وإن لم تكن قد رأيت المشهد كلّهُ، فإن البحث عن مسبّب المشكلة لن يؤدّي إلا إلى المزيد من النزاع، حيث سيحاول كلّ طفل تجنّب اللوم، وقد يقلّص تقدير عقاب لكلّ طفل من التحريض المستقبلي؛ لأنّ الطفل يتعلّم أنّه من الصعب إلقاء اللوم على الطرف الآخر، وأياً كان الأمر، فإنّه سيواجه العقاب نفسه.

علم الطفل التشارك وحلّ المشكلات: تبرز قضايا الظلم والعدل عندما يشترك الإخوة في إحدى اللعب أو يقسمون شيئاً ما في ما بينهم. علم طفلك المبادرة والعدالة، وجنّب الأناية وحبّ الذات، علمه كيف يكون عادلاً عندما يقسم قطعة الكعك بينه وبين أقرانه، دعه يبتكر أساليب لمشاركة أقرانه اللعب في لعبة يتعدّر اقتسامها بينهم، بما يضمن تحقيق العدالة.

ثمّة إستراتيجية أخرى لإبلاغ الأطفال أنك تتوقّع منهم أن يتمكّنوا من حلّ مشكلاتهم بعيداً عن تدخّل الكبار، قد تقول مثلاً: «يا أولاد، يبدو كلّ منكما غاضباً على الآخر (لاحظ مشاعرهم وقدرها)» آه! طفلان وعربة نفايات واحدة، هذه مشكلة، أليس كذلك؟ «(صِف المشكلة)» حسناً، أنا متأكد من أنكما قد تجدان حلّاً حيث يأخذ كلّ منكما دوراً». (شجّعهما على حلّ المسألة بمفردهما)، ثمّ ابتعد عنهما، كي يتمكّنا من حلّ المشكلة، ويتيح لك - في الوقت ذاته - الابتعاد عن الموضوع الذي ربّما يكون الأهمّ بالنسبة لهما من اللعبة ذاتها.

وسّع دور الطفل وأبرزه: إذا بدت هويّة الطفل مرتبطة بقوة بدور معيّن (أو أدوار معيّنة)، فإنّ توسعة ذلك الدور قد تساعد في التخفيف من التنافس. قد يشجّع الآباء، مثلاً الاهتمامات الجديدة بلطف، أو يمكنهم إبراز الوظائف والمهامّ التي قام بها الطفل في يوم عاديّ، وبيان أثر سلوك الطفل في حياة

العائلة بشكل متكرّر. وربما قد تأمل أن تبتكر أدواراً جديدة، أو حتّى أن تجد فرصاً لعكس الأدوار، مثل أن يُعطى الطفل الذي يكون تابعاً معظم الأحيان دور القائد في ذلك اليوم. وقد يحتاج والدا الطفل الصغير الموهوب المنطوي إلى بذل جهد كبير؛ كي ينشغل باهتمامات جديدة ومختلفة. تساعد هذه التوسّعات في الأدوار على الاعتراف بتقديرك لهذه الأدوار التي يتقاسمها أطفالك في العائلة. وقد تشير بعض الأدوار بالنسبة للأطفال إلى مكانة أقلّ منها في الأدوار الأخرى، فقد لا تبدو قيمة الشخص الخطيب الموهوب، مثل قيمة النجم الرياضي مثلاً، في مثل هذه الحالات، قد يكون من المفيد الإشارة إلى المهارات الخاصّة المتضمّنة عندما تتحدّث عن أدوار الأطفال، مثل التعاون الجسمي، المقدرة الرياضية، التصميم القوي... إلخ. ممّا يشعر الطفل أنّ دوره له احترام أكثر ممّا يتصوّر.

العدل والمساواة لا يعينان التطابق دائماً

في معظم الأحيان تتكرّر بين الأقران قضية «لقد أخذ أكثر مني»، وهي بالنسبة للطفل الموهوب قضية عدالة، وقيمة شخصيّة. فالطفل الذي يشكو يريد أن يكون له من القدر مثل أخيه، لذلك فهو يستحقّ قطعة حلوى بحجم قطعة شقيقه، أو لعبة مثل لعبته. إنّ طلب الطفل قطعة أكبر من قطعة أخيه يعني، بصورة أو بأخرى، طلب إعلان فرق بينهما يراه الطفل، مثلاً، أنا أكبر منه؛ لذا يجب أن أحصل على قطعة أكبر. ويتعيّن على الآباء أن تكون لديهم الحكمة في حالات التشاجر على الطعام، حيث يسأل الواحد منهم: «هل تقول إنّك ما زلت جائعاً؟ إذا كان الأمر كذلك، فما زال لدينا كمية من الطعام. إذا أنهيت الموجود أمامك، تستطيع أن تحصل على المزيد من الحليب، أو على تفاحة. أو حتّى على شطيرة».

يحتاج الأطفال في كثير من الحالات أن لا يعاملوا بمساواة مع أقرانهم. افترض أنّ لديك كعكة؛ ولكي تكون عادلاً تقسّمها إلى أربعة أقسام متساوية لأطفالك الأربعة. ففكر في الأمر بالطريقة التالية، افترض أنّ أحد أطفالك يتبع حمية غذائيّة خاصّة، والثاني لديه حساسيّة مفرطة للشوكلاته، والثالث لا يحبّها، والطفل الرابع يحبّها كثيراً. إنّ تقسيم الكعكة إلى أربعة أقسام متساوية يعني تحقيق المساواة بين الأخوة، لكن لن يكون جيّداً أو عادلاً أن تعطي كلّ طفل قطعة بالحجم نفسه. في الحقيقة يجب ألاّ يحصل أخوان اثنان على أيّ جزء من الكعكة لأسباب صحيّة، علينا أن نستجيب لحاجة كلّ من الأطفال الأربعة بشكل فرديّ بدلاً من معاملتهم بالتساوي.

وبناء على ما سبق يمكننا التساؤل، هل يتعلّم الأطفال عندما يكبرون الدروس نفسها، أو يستعملون الموارد نفسها؟ وإن كان أحدهم موهوباً في اللغة العربية مثلاً، واحتاج دروساً في ذلك، فهل من المفترض علينا أن نقدّم دروساً في العربية لطفلٍ آخر على الرغم من عدم اهتمامه بها، لمجرد أن نكون عادلين! أو أنّ علينا أن نبحث عن خياراتٍ أخرى تتناسب مع اهتماماته؟ هل يجب أن يخطّط ثلاثة أخوة للذهاب إلى الجامعة نفسها؟

توضّح هذه الأمثلة أنّه يمكننا في حالات خاصّة أن نعامل كلّ طفل بشكل فرديّ، فالمعاملة المتساوية لا تكون دائماً مناسبة. ولهذا على ولي الأمر أن يبحث عن الحاجات الفرديّة الخاصّة بكلّ طفل، بناءً على مواهبه، وقدراته، واهتماماته، وأن يبيّن لأطفاله جميعهم أنّه سوف يوفّر لكلّ واحد

منهم ما يحتاج إليه وفقاً لاهتماماته ورغباته.

وبدلاً من إعطاء الأطفال الكميات نفسها بالتساوي، لا بد أن يفكر الآباء في إعطائهم الكميات بشكل متفرد حسب الاحتياجات الفردية لكل منهم. ويستطيع الآباء الذين يستعملون الوقت الخاص بانتظام، أن يقرروا ما الذي يحتاجه كل طفل، أسأله فقط: «ما الذي تحب أن تتحدث عنه؟» أو «ما الذي تحب أن تعمله في وقتنا الخاص بهذا اليوم؟». عندما يصبح الوقت الخاص حدثاً متكرراً في العائلة، يعرف الأطفال أنهم متفردون، ويتم تقديرهم لذواتهم فقط، فيتكئون عندهم ما يكفي من الثقة واحترام الذات لإخبار الآباء باحتياجاتهم. وبناء على ما سبق فإن المعاملة المتساوية تعني أن نعطي كل طفل ما يحتاجه، وليس أن نعطي أشياء أو موارد متطابقة لكل طفل.

تعاون الأخوة الأشقاء

عملت إحدى العائلات بكل أفرادها حتى تجمع النقود لشراء معدّات ملعب لحديقة بيتهم الخلفية. وقد شارك في هذا العمل حتى طفل ما قبل المدرسة الذي تولّى جمع علب الصودا لبيعها وكسب ثمنها. لقد تعاون أفراد الأسرة على ذلك، وحولوا العملية إلى لعبة، وركز كل واحد منهم ليس على النتيجة فقط، وإنما على الطريقة أيضاً. لقد ابتهجوا عندما حققوا هدفهم. وكان كل طفل يرغب في الاشتراك باستعمال المعدّات الجديدة. لقد استثمر كل واحد منهم في كل من الطريقة والنتيجة. وتعلّم الأطفال قيمة التعاون، والعمل الجاد، والمهمة المتقنة. كان لكل طفل دور مهم، وكان لكل دور قيمته.

في هذا المثال، شعر كل طفل في هذه العائلة أنه موضع تقدير، وأنه عومل بعدالة وتشجيع، وأنه واثق من نفسه؛ مما أدى إلى تقليص احتمالية حدوث التنافس السلبي بين الأخوة. وأصبح التكتاف الموجود واضحاً باستمرار. كان الأطفال في الماضي يتكاتفون فقط إذا علّق شخص من خارج العائلة تعليماً يحطّ من قدرها. أما الآن فإنهم يقضون فترات طويلة من التعاون، خاصة عندما يصبح الأطفال راشدين صغار، ويبدون أقرب لبعضهم بعضاً. صحيح أنهم لا يزالون يحتفظون بأدوارهم الأساسية- هذا هو المهرج، وذاك الذي يأتي دائماً متأخراً- لكن مظاهر الغضب، والحسد، والكراهية بينهم أصبحت أقل، وازداد التعاون و توثقت صداقتهم؛ حيث وضع مشروع العائلة الأساس لذلك.

يعدّ تعاون الأخوة هدفاً صحيحاً، ولهذا شجّع أطفالك ما أمكن على التعاون، بدلاً من التنافس مهما كان عددهم، حيث تظهر بعض العائلات المكوّنة من ستة أو سبعة أطفال تعاوناً واحتراماً متبادلاً. إن الأطفال يعرفون ويقدرّون من خلال التعاون ليس أدوارهم وأنشطتهم فحسب، وإنما أدوار وأنشطة الآخرين أيضاً، وهذا بالتأكيد مرغوب أكثر من عائلة يتنافس فيها الأطفال على اهتمام الآباء، وتكون فيها كل محتويات البيت في حالة من الفوضى المستمرة. وعلى الرغم من أنّ الناس يتبعون عادة أنماطاً سلوكية عامة طيلة حياتهم، إلا أنّ التغيير ممكن. ولكن، من السهل تغيير هذه الأنماط في عمر مبكر، وليس في زمن الرشد، كما أن ردّات فعل الآباء على تفاعلات الأخوة المبكرة هي بالتأكيد عوامل رئيسة في هذا التغيير.

